..حظي العسر

اعتدت متابعة الأخبار ومواكبة العالم منذ الصغر، ليس حبا ولا تطلعا، لكن فقط لمجاراة الكهل العجوز القابع في مضيفته المسمى "جدي" والذي لم يفشل يوما في افحامي وهزيمتي في مبارزات معلوماتية طاحنة خضناها سويا وفاز هو بها جميعا!

كان يحدثني عن تاريخ البلاد والعباد ويطلعني عن كل ما هو حداثة وماض سحيق! كان يفقه الدين ويعلم السياسة ويتحدث في كرة القدم ويتوقع مجريات الأمور، حتى ظننته ساحرا!

وفي صباح يوم حالم، عام 2010 ، شهر أكتوبر، قادتني قدماي الى بداية عصر جديد بإلتحاقي بجامعة الأزهر لأكمل دراستي الجامعية، لكن حظي العسر لم يطالني فقط، بل طال الدنيا بأكملها فقط بعد أقل من 3 شهور لوصولي ! فقد بدأت إنتفاضة يناير!

لم أكن أعلم أن تلك الحركة الشبابية التي عاصرتها منذ ان كانت نضفة في رحم كوبري قصر النيل، ثم عشت معها بعد أن كانت علقة في الميدان، حتى صارت يوم ان ارتدت مقهى قريبا منها جنينا يوم ولادتها العسرة التي حوصرت فيها امام مبنى ساميراميس قرابة ال 11 ساعة متواصلة اشاهد ما لا يمكن وصفه من شرفة كنت أظنها لوهلة بوابة سحرية لكوكب شارد في فضاء سحيق لا يراه غيري من هول أحداث الولادة!

كانت يناير في ظني طفل رضيع، وكنت انا، وكما أحب أن ارى نفسي فيها، "خال يناير"، فانا لست الأب الذي وضع البذرة وتحمل عناء التكاليف وتكبد معاناة القبض والسحل والموت والضرب، ولا انا الأم التي تحملت عناء الولادة والخرطوش والاستقطاب والتحزب والانتماءات والمطالب ، وبالطبع لست الجد المسؤول عن تاريخ قديم لتلك الأسرة المنفلتة طباعها، فانا "خال الثورة" الذي شاهد ولادتها وربطه بها علاقة حب لكنه ليس جزء من ماضيها ولا مؤثر في مستقبلها!

لم تمر ايام على اعلان التنحي، لتعلن أيضا الجامعة الأمريكية بالقاهرة عن قبولي في صفوف طلابها لأشهد من جدي حفاوة وفرحة مماثلة لما ابداها بدخولي الأزهر، فلم اجد تفسيرا حتى اقتنعت في قرارة نفسي انه يفرح لفرحي في المطلق وليس لتفاصيل الانجاز!

منذ تلك اللحظة ولم تتوانى المواقف في التصادم معي بشكل شخصي حتى ظننت يوما انني مستهدف لشخصي!

مساء يوم شتوي بارد استيقظت كعادتي حينها، بعد ان نامت شمس النهار، لأستعد لأولى محاضرتي التي أصبحت "سيشن" وليست "حصة" في صدمة حضارية حاولت استيعابها مبكرا حتى لا يقال عني "فلاح" ليس لتملصي من هذا اللقب لكن لأنني لا اعلم بشأن تلك المهنة أصلا "فهيكون شكلي فلاح وخايب" ، قمت بالتوضيب لأغراضي على أكمل وجه وارتميت في أحضان احدى سيارات الأجرة الإلكترونية لأصل الى الحرم الجامعي الذي فاتني فيه اولى المحاضرات كالعادة، فذهبت الى اقرب مقعد في الحديقة الواسعة المليئة بالأشجار ووضعت سماعاتي لأستكمل أحدى اغاني منير في تظاهر مني اني بسمع حاجة مهمة!

باغتتني فتاة لم ارها الا وهي امامي مباشرة لتسألني عن ما تم شرحه في المحاضرة السابقة نظرا لعدم حضورها لظروف طارئة رغم انه اليوم الاول لكنها لم تتمكن من القدوم وبدأت في سرد تفاصيل الظرف، وانا أتأمل في مظهرها الذي بدا أكثر رسمية وهنداما، فهي فتاة رشيقة لبضاء البشرة طويلة الشعر يبدو عليها الخجل والتوتر لكن رابطة جأشها وفرحتها يمنعانها من الصراخ، او هكذا تخيلت.

نظرت لي بصمت وتعجب، فبدوت انا كالأبله لانه دوري فالاجابة على سؤالها! ولكن بطنتها اكتشفت حقيقة الأمر، فكلانا لم يحضر..انفجرنا في الضحك سويا وولدت صداقة استمرت لسنوات دراسية طويلة

تقاطعت سبلنا كثيرا خارج اروقة الدراسة، فجمعتنا حفلات كلاسيكية في الاوبرا وغيرها اكثر مرحا في مختلف الاماكن الترفيهية التي كانت ذات شهرة كبيرة حينها،

وكانت هي دائما ما تأتي بسيارة فارهة "او كانت كذلك وقتها" وسائق خاص يسلمها الينا كمن يخلي مسؤليته عن امر ملغوم، ثم ينصرف !

لكني ابدا، لم انسى حين قدمت برفقة والدها الاستاذ الصحفي الكبير، فهو في وجداني منذ ان حدثني عنه جدي، ورسخ في قلبي اكثر بعد ما احدثه من فارق شعبوي بعد الثورة، فهو ناصري باقتدار، يخطب ببراعة، ويتورع في كلماته..لكن! لكنه ناصري يتغنى بالطبقة الفقيرة ويفتخر انه احد ابنائها ولا يتوانى في الحديث عن "بلغة" ابوه الفلاح اللي لسه بيلبسها لحد انهاردة في ارضهم في كفر الشيخ وان ناصر كان له الفضل انه يشتريها!

كان هذا الكاتب ذو شهرة واسعة بين الشباب في مقاهي وسط البلد يستشهدون بكلماته عن الفقر والفقراء وعن البؤس والكادحين تلك الطبقة التي انتشلها ناصر من مستنقعها افقرها مبارك من جديد ويجب ان نثور من اجلها